بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شعرتُ منذ زمنٍ بعيد بأن طلبة الدراسات العليا فى أقسام اللغة العربية بجامعاتنا المختلفة فى حاجة ملحَّة إلى كتاب يبين لهم كيف يُوضَعُ البحث الأدبى، وكيف يُختار، وكيف يُصاغ منهجيًّا، وكيف تُحقَّق أصوله وتوثَّق، وكيف تُستخدَم مصادره ويُنتفَعُ بها على خير وجه. وهو ما دفعنى إلى تأليف هذا الكتاب المُجْمل، وقد بدأته ببيان طبيعة البحث الأدبى وخصائص مادَّته الوجدانية وما ينبغى أن يتَّبعه الباحث الناشئ فى اختيار موضوعه وما يحفُّ بهذا الاختيار من أخطار متعددة، كأن يعتمد على غيره فى اختياره دون أن تكون له معاناته الخاصة، وقد لا يكون ملائماً لاستعداده. وهو استهلال سيىء قد ينتهى به إلى أن يُصْبح دائمًا عالةً على الآخرين لا فى اختيار بحثه فحسب، بل فى جميع أفكاره. ولا يقلُّ عن هذا الخطر شأنًا اتساعُ الباحث المبتدئ بموضوع بحثه بحيث يشمل عصراً بأكمله بجميع صعوباته ومزالقه، أو يشمل إقليمًا بجميع بُلْدانه وأحداثه وشخوصه، وحسبه شخص واحد فى الإقليم أو جانب واحد فى العصر، بل أوْلَى له أن يكتفى بجانب مهم فى أحد الشعراء أو الكُتَّاب النابهين. وينبغى أن ينسِّق موادَّ البحث تنسيقًا دقيقًا بحيث يُصْبح كأنه بناء منطقى ضخم، وكل فصل فيه، بل كل جزء فى فصل يرتبط بما قبله وبما بعده ارتباطًا منطقيًّا محكمًا، بحيث لو اضطرب التسلسل أى اضطراب فدخله حَشْو أو استطراد تداعى البناء كله وانهارت أركانه. ولا بد من الاستقراء التام للنصوص والاستنباط البصير للخصائص الكلية، إذ هما قوام البحث الأدبى وسناده وعماده؛ وبدونهما لا يقوم ولا ينهض أى نهوض. ولا بد أن تتوالى فى البحث تفسيرات صحيحة لحقائقه الجزئية والكلية التى تَسْرِى فى شعر بعض الشعراء أو فى عصر من العصور أو إقليم من الأقاليم، تفسيرات تعمه وتتداخل فى جميع جوانبه بحيث يُعَدّ بحثًا طريفًا من شأنه أن يفيد منه الباحثون. ولا بد أن تتكوّن لدى الباحث الناشئ قدرة على التذوق الأدبى

المعلَّل والتحليل الدقيق لشخصيات الأدباء وفنِّهم وخصائصهم المميَّزة ، مع دقَّة العرض واكتمال التمثُّل ومع الاحتياط فى استخدام صيغ التعميم ، ومع استظهار صيغ الاحتمال ، ومع فصاحة العبارات وما ينبغى لها من حسن الأداء .

وبسطتُ القول فى مناهج البحث من القديم إلى الحديث وفيما أدَّتْ إليه نهضةُ العلوم الطبيعية فى القرن الماضى من سَيْطرة قوانينها على البحوث الأدبية وظهور ما يمكن أن يسمَّى بالتاريخ الطبيعى للأدب ، إذ وُضع الأدباء فى فصائل متميزة كفصائل النبات والحيوان ، واكتُشِفَتِ القوانين التى تعمُّهم وتحكمهم ، وهى قوانين الجنس والمكان والزمان التى تُنْكِر إنكاراً قاطعًا فرديَّة الأديب متخذةً صورة جبريَّة حتميَّة لا يمكن أن تُدْفَعَ . وطُبِّقَت نظرية النشوء والارتقاء على الأنواع الأدبية تطبيقًا دقيقًا . وأخذت البحوث الأدبية تتأثر من وجوه شتَّى بالدراسات الاجتماعية وكل ما تخوض فيه من ظواهر المجتمع وطبقاته وأوضاعه الاقتصادية والسياسية . وظهر مقياس الالتزام فى الأدب الذى يزن الأديب بمقدار تكييفه للمجتمع وموقفه من قضايا أمته واحتماله لما ينبغى أن ينهض به من تبعات ومسئوليات . وانعكستْ أضواء كثيرة من الدراسات النفسية على البحوث الحديثة فى الأدباء وبخاصة ما اتصل منها بنظريات اللاشعور والعُقَد المكبوتة الخفية كعُقْدة أوديب والنَّرْجسيَّة الشاذَّة ومركَّبات النَّقْص واللاوَعْى الجَمْعِىّ ورواسبه العتيقة والقيم السيكولوجية للآثار الأدبية وأصدائها فى المتلقِّين لها من القرَّاء والسامعين . وتدافعتْ أسراب كثيرة من الفلسفة الجمالية إلى البحوث الأدبية فيما أوغلتْ فيه من دراسة الجمال الفنى وحقائقه وقيمه ومدى صلاته بالمثال المطلق وبالمجتمع وحاجاته ومعاييره . ودعا كثيرون إلى أن تعتمد البحوث الأدبية على تصوير الانطباعات التى تخلِّفها الآثار الأدبية فى نفوس النقاد ، فى حين دعا آخرون إلى التخلى عن كل انطباع ذاتى وأن يقوم البحث على موضوعية مسرفة تبيِّن مدى انسياب التيار الفنى الموروث فى الأديب وأدبه . مع التعمق فى مباحث لغوية وبلاغية . وجدير بالباحث فى الأدب وآثاره أن ينتفع بكل هذه المناهج المتقابلة ويستضىء بها فى بحوثه قدر طاقته .

وتناولتُ الأصول لتراثنا العربى وما ينبغى أن يُكْفَلَ لها من التوثيق والتحقيق ،

ومن الكتب العلمية الجيدة فى هذا الموضوع كتاب أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجستراسر . وقد أوضحتُ كيف سبق المحدّثون إلى تحقيق الحديث النبوى وتوثيقه وكيف شمل التوثيق والتحقيق جميع صور النشاط اللغوى والأدبى . وأنعمت النظر فى توثيق المحدّثين لرواية الحديث ورواية أصوله ونفوذهم إلى وضع علومه وسَنَّهم لطرق تحمُّله ونقله وروايته لما كان لصنيعهم فى كل ذلك من أثر بعيد فى توثيق اللغويين لرواية الشعر ودواوينه على نحو ما يصوّر ذلك الأصمعى وابن سلام وأبو الفرج الأصبهانى . وكانوا يكتبون على الصفحات الأولى من الدواوين والمخطوطات سَنَدَ الرواة للدلالة على التحرّى الدقيق . ونلتقى بصور رائعة لهم فى توثيق المصنَّفات اللغوية والأدبية توثيقًا علميًّا سديداً على نحو توثيقهم لمعجم العين المنسوب خطأ إلى الخليل . ومما يوثّق الأصولَ أن تكون مكتوبة بخط مؤلفيها أو يكون عليها توقيعاتهم وشهاداتهم برواية بعض تلامذتهم لها عنهم سماعًا أو قراءة أو إجازة . ويوثّق المخطوطات عامة أن تكون مُرَاجَعَةً على الأصول بدقة ، كما يوثّق أىَّ مخطوطة أن يذكر المؤلف فى مقدمتها أو فى تضاعيفها أسماءَ أشخاصٍ عاصروه ، وكذلك أختامُ الوقف والتمليك وشهاداتُ بعض العلماء بأنهم قرءوها . وقبل تحقيق أىِّ كتاب ينبغى جَمْعُ نُسَخه المخطوطة ، حتى إذا جُمعت اتخذ المحقّق نُسْخة المؤلف أو أقربَ فروعها إليها الأصلَ المعتمدَ للتحقيق والنشر . وإذا تعدَّدت نُسَخُ كتابٍ قُسمت إلى عشائر ، وجُعلتْ لكل عشيرة أمٌّ ؛ لتكون المعارضة بين الأصل والأمهات . وإذا كانت لديوان روايتان أو روايات مختلفة جَمَعَ المحققُ بينها دون مَزْج . وتُتَّخَذُ لنسخ الديوان وكذلك لنسخ الكتاب رموز للتيسير على نحو ما صنع قديمًا اليونينى فى إخراجه لصحيح البخارى ، وهو إخراج يتفوّق به — فى رأينا — على كل صور الإخراج الحديثة لكتب التراث . ويحسن أن يعارض المحققُ الكتابَ الذى يُعْنَى بتحقيقه على أصوله وفروعه ، وبخاصة إذا اضطربت أوراقه أو أصابها مَحْوٌ أو تآكل أو تقطيع ، وكذلك إذا دخلت الكتابَ إضافاتٌ من عمل بعض النساخ . ولا بد للمحقق من معرفة اصطلاحات الأسلاف فى الخطِّ والكتابة . ولا بد أن يكون على علم بما يحققه حتى لا يفوته تصحيفٌ ولا أسقاطٌ فى الكلام ولا أغلاط . ويحسن أن يضع للكتاب

الذى يحققه مدخلا للتعريف به وبمؤلفه وبمصادره وقيمته . ولا بد من عنايته البالغة بالترقيم ووضع الفهارس .

وتحدثتُ عن المصادر وتنوعها بين أصيل وثانوى وكيف أن الرواية الشفوية كانت المصدر الأساسى للمصنفات الأولى المغرقة فى القدم . وأوضحتُ كيف أن المصنفين القدماء على اختلاف تخصصهم كانوا ينصّون فى مقدمات كتبهم وفى تضاعيفها على المصادر التى استمدُّوا منها مادَّتها فى اللغة والتاريخ والجغرافيا والتفسير والقراءات والنحو والبيان والبلاغة والأدب. وقد عُنِى المحدِّثون عناية واسعة بنقد المصادر الأولى للرواية ومصنفات الحديث نقـداً دقيقاً اتخذوا له موازين ومعايير محكمة ، وحاكاهم علماء اللغة والشعر فى اتخاذهم نفس المعايير والموازين . وتنبهوا جميعاً إلى ما قد تجرُّه المنافسة من تجريحات لا ظل لها من الحقيقة ، وكذلك ما تجرُّه العصبية الجامحة فى المذهب أو العقيدة ، كما حدث بين بعض الفقهاء والصوفية ، وكذلك بين بعض الحنابلة والأشعرية . وطبيعى أن يهتم الباحثون بالمصادر اهتماماً واسعاً لأنها الشهود والبراهين على صحة الأفكار . ومن الخير للباحث الناشئ ألاَّ يتسع بموضوع بحثه ، حتى يستطيع الإلمام الدقيق بمصادره ، وألاَّ يُحيل على مصادر متأخرة ويترك المصادر المتقدمة ، كما ينبغى ألاَّ يُحيل على مخطوطات يملكها بعض الأفراد ، وعليه أن يتخذ كل وسيلة ممكنة للتعرف على مصادر بحثه . وعُنِى بعض الباحثين المعاصرين بنقد المصادر الأولى للشعر الجاهلى أو قل بنقد روايته نقداً عنيفاً ، ويلقانا عند بعض الباحثين نقدٌ علمى خصب لروايات الطبرى ، وكذلك الشأن فى روايات أبى الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى . وينبغى التنبه فى دراسة المصادر القديمة إلى ما قد يجرُّه الهوى والنحلة العقيدية من أحكام خاطئة . ولكى تعظم الفائدة من المصادر ينبغى أن تنظَّم المواد والملحوظات المجموعة منها فى بطاقات ، ويحسن أن تُنْقَل الاقتباسات منها بنفس الألفاظ والحروف ، كما يحسن ألاَّ تكثر الحواشى وألاَّ تُتْخَم الهوامش بالمصادر حتى لا يملَّ القارئ وحتى لا يشعر بأن الباحث يريد التكثر بذكرها لا الاستدلال العلمى الدقيق . والله — وحده — أسأله الهدى والتوفيق .

القاهرة فى أول فبراير سنة ١٩٧٢م .

شوقى ضيف